المحاضرة الثانية/ قراءة في التفكير اللساني قبل فردينان دي سوسير

الهدف الخاص: أن أن يتعرف الطالب على خصائص التفكير اللساني قبل سوسير ويميز المنطلقات المعرفية للدرس اللساني عند كل أمة .

الهدف الإجرائي: أن يحدد الطالب أهم العلماء الهنود واليونانيين والرومان والعرب وأهم أعمالهم الخالدة في مجال الدراسات اللسانية.

مقدمة:

كانت الأمم القديمة تعتني بكلامها، وفنون تعبيرها، حيث بدأت الحضارات الإنسانية تعيير الاهتمام للغة منذ وقت مبكر، لاسيما أن اللغة عند كثير منهم تكتسب صبغة دينية، إذ كانت عندهم: لغة الكهان، لغة العبادة، فضلا عن كونها لغة التعامل في مختلف الشؤون اليومية.

أولا/ التفكير اللساني عند الهنود:

لقد كان الهنود أول الدارسين للغتهم دراسة علمية بمفرداتها، وأبنيتها، وتقسيم أجزاء الكلام من حيث أصواته المفردة، ولغتهم هي اللغة السنسكريتية التي ظهرت حوالي (الألف الثانية قبل الميلاد)، كان يستخدمها الآريون وهم: قبائل من جنوب روسيا، وهم الذين غزوا الهند، واستقروا في تلك المنطقة كما توسع استعمال هذه اللغة في شمال الهند، وقد سيطرت على لهجات الأهالي.

لقد دون الآريون عاداتهم ومختلف طقوسهم الدينية بهذه اللغة، وقد جمعوا هذه النصوص في كتاب" الفيدا"، غير أنهم طوروها أثناء احتكاكهم بلغات الهند الشمالية، فتغيرت نوعا ما لكن علماءها نهضوا لخدمتها، فوضعوا لها القواعد، واستخرجوا منها أبنية المفردات، فصارت بذلك لغة السياسة، ولغة الأدب، كما دونوا جميع الكتب المقدسة بهذه اللغة" مجموعة أناشيد الفيدا".

إنّ عامة الشعب قد آثرت استعمال اللهجات العامة عند التخاطب، ومن أشهرها "لهجة بالي"، ويرى علماء اللسان أنّ: السنسكريتية تمثل اللغة الأصلية للغات الهندو أوروبية، غير أنها تعدّ اليوم لغة ميتة لأنها زالت من الاستعمال عدا الأمور الدينية.

ويرجع الفضل إلى عالم من علماء الهند وهو: النحوي المشهور (بانيني) عاش في القرن الخامس قبل الميلاد في تدوين هذه اللغة، ووضع قواعدها النحوية، وذلك بالاعتماد على بحوث سابقيه من اللغويين الهنود، وقد زالت اللغة السنسكريتية في ذلك العهد الغابر، وقد ظهر كتاب نحوي جليل جدا هو كتاب "الأست أدهيايي" ومعناه "الكتب الثمانية" يشمل على 4000قاعدة مختصرة، وتعريفات موجزة تتصف بطابع منطقي.

إنّ النحو الهندي قد اهتم –بالإضافة إلى القواعد النحوية التعليمية-بتحليل أصوات اللغة، ووصفها وصفا دقيقا، وذلك ليبقى النطق بالجمل الدينية نطقا صحيحا، وهو أول وصفي علمي لأصوات تضمن تقسيما محكما للحروف وتركيبها، ومخارجها من الحلق إلى الشفتين.

فصل (بانيني) أبنية المفردات ووصف مادتها الأساسية، وبالتالي يكون أول من وضع علم الصرف، كما بيّن ما يلحق الكلمات من لواحق وما يسبقها من سوابق تكون سببا في تغيير معنى الكلمة، كما يكون أول من حدّد مفهوم المادة الأصلية للكلمة، كما أوضح أصولها في الجملة، وما يلحقها من تغيير وذلك حسب موقعها في مدرج الكلام.

كما تكلم النحاة الهنود في أصل اللغة وقالوا:" إنّها من أصل إلهي وليست اصطلاحية.

ثانيا/ العلوم اللسانية عند اليونان:

استعار اليونانيون من الفينيقيين كتابتهم الهجائية، إلا أنهم أضافوا عليهم بأن جعلوا إلى جانب الصوامت ما يُعرف بالصوائت وأشباه الصوائت، وذهبوا إلى أن الصامت لا يمكن أن ينطق به إلا مع صائت أو شبه صائت، كما استبدلوا حروفا فينيقية بحروفهم.

وكانوا قد تحدثوا عن قضية أصل اللغة، وانقسموا ثلاثة أقسام فمنهم من قال:

-إنّ اللغة توجد بالطبع، فلكل شيء اسم سديد الدلالة مطابق لمدلوله تماما (قراطولوس).

-لكل اسم دلالة طبيعية أولية إلاّ أن الأسماء لا بد لها من واضع؛ (سقراط وأفلاطون)

- لا مطابقة بين الاسم والمسمى إلاّ بالوضع يقول أرسطو :" *الاسم هو لفظة دالة بتواطؤ*."

وقد تحدثوا عن نظام الجملة وأنواع الجمل وهي عندهم اسمية وفعلية، وعن أزمنة الأفعال وهي ثلاثة: ماض ومضارع(حاضر)، ومستقبل، واهتموا بأقسام الكلام، حيث قسم أفلاطون الكلام اليوناني إلى اسم وفعل وهي أقوى الأقسام عندهم، وقد عرف الاسم على أنه من يقوم بالفعل وهو قريب من مفهوم الفاعل عندنا، أما الفعل فيدل على حدث أو صفة (لأن طبيعة الأفعال هي التي تعطي الصفات)، أما أرسطو فقد تحدث عن فروع العبارة أو أقسام الكلام وجعاها سبعة وهي:" الحرف والمقطع والرباط والاسم والكلمة(الفعل)، والتصريف، والكلام.

أمّا المدرسة الرواقية فقسمت الكلام أربعة أقسام هي الاسم والفعل واحرف، والرابط، وأدرجت الصفة في قسم الأسماء كما هي الحال في العربية، كما تحدثوا أول مرة عن الحالة الإعرابية، وقد أسس اليونانيون مدرسة في النحو هي المدرسة الإسكندرية بداية القرن 3ق م ومن علماءها ديونسيوس التراقي أو ثراكس صاحب كتاب " في النحو الإغريقي" Téchné Gramatiké" وهو كتاب يقع في 15 صفحة /25 جزء/ 400 سطر، وقد قسم الكلام إلى ثمانية أقسام بإضافة قسم على التقسيم السباعي لأرسطو وهي: الاسم، الكلمة(الفعل)، الفاصلة، الخالف، المشبه بالاسم والكلمة، تابع الكلمة، أداة الإضافة، الرباط.

والنحو عنده هو:" *المعرفة العلمية للاستعمالات العامة لكل من الشعراء والكتاب*"

وهو ستة أجزاء كبرى:

1. قراءة صحيحة تتفق مع قواعد النبر.
2. تفسير مع ما يجري استعماله مع صور البيان.
3. تحديد للألفاظ الغامضة والمعاني القديمة.
4. بحث عن أصول الكلمات.
5. بحث عن التناسب اللغوي أي استنباط الأنظمة القياسية.
6. نقد الشعر حتى يُعرف أيه أحسن.

والملاحظ أن الدراسات النحوية عندهم تضم علم الأصوات والبلاغة والبحث في أصول الكلمات، للمفاضلة بين الأشعار أي إن الفكر اللساني ارتبط عندهم بالأدب عكس الفكر الهندي والعربي الذي ارتبط بالدين والنصوص المقدسة.

ثالثا/ العلوم اللسانية عند الرومان:

أفاد اليونانيون الرومانيين بمعلوماتهم اللسانية فنشأت مدرسة نحوية لاتينية كان من أشهر علمائها: فارو(Varro) المتوفي في القرن الأول قبل الميلاد صاحب كتاب" في اللغة اللاتينية" وهو كتاب يتكون من 26جزءا، تحدث فيه عن أهم القضايا النحوية متناولا مسألة "القياس والشذوذ"، وتكمن أهمية عمله في كونه لم ينظر إلى ظاهرة الشذوذ في اللغة على أنها ظاهرة سلبية بل قال:" *إن لها دورا في توليد المفردات والمعاني الجديدة*" فاهتم كثيرا بقضايا الاشتقاق، وصنف المسائل اللغوية في ثلاث علوم: علم الصرف، علم التركيب، علم أصول الكلمات.

كما قسم الكلام اللاتيني إلى أربعة أقسام على شاكلة تقسيم المدرسة الرواقية اليونانية، وهذه الأقسام هي: الكلمات ذات الحالات (الأسماء والصفات)، الكلمات التي لها زمن(الأفعال)، الكلمات التي لها حالات وأزمنة (أسماء الفاعل والمفعول)، الكلمات التي لا تحمل زمن(الظروف)، ويبدو أنه يقصد ظروف المكان بالمعنى العربي.

ومن علمائهم أيضا نذكر كواتيليانو وله كتاب" مناهج صناعة الكلام" تطرق فيه إلى فنون الكتابة وسنن الكلام أي محتواه قريب مما سماه الجاحظ عندنا "بلاغة الكلم وبلاغة القلم" وقد دارت مناقشاته وشروحه حول هاتين البلاغتين.

أما دوناتو صاحب كتاب" الفن الأصغر في الأقسام الثمانية من صناعة الكلام" فهو على شاكلة كتاب" ثراكس" غير أنه كتاب بلاغي بامتياز.

وما نشير إليه هنا أن الرومانيين اهتموا أيضا بفنون صناعة الكلام، حيث كانت لهم اهتمامات كبيرة بالجانب الجمالي في اللغة شأنهم شأن العرب في عصورهم الأولى. فالكتابين الأخيرين يحملان معا مصطلحا كثيرا ما تردد في نقدنا العربي وهو مصطلح الصناعة (ومن أشهر الأمثلة على ذلك كتاب" الصناعتين لأبي هلال العسكري).

من تتبعنا للفكر اللساني القديم يتبين لنا تفوق الهنود على اليونانيين والرومانيين في معالجة القضايا اللسانية وهذا نابع من سببين: أولا / لأن اللغة والدراسات المرتبطة بها ارتبطت بنطق الجمل الدينية فاكتسبت قداستها، وثانيا أنهم مالوا إلى ملاحظة الظاهرة اللسانية وبالتالي طبقوا المنهج الوصفي الذي يعطي حقيقة الظاهرة اللسانية بدقة. في حين غلب على الدراسات اللسانية الأخرى الجانب التاريخي وكذا المعياري خاصة في النحو اليوناني.

رابعا/ تاريخ الفكر اللساني في أوروبا إلى غاية القرن 19م:

دخلت البلدان الأوروبية في سبا تعميق بعد انهيار روما دام عدة قرون، عدا ما كان يدور في مجالس الرهبان (الطبقة المثقفة آنذاك) من مناقشات، ومحاضرات كانت في الغالب الأعم تعليقا على ما قاله (دوناتو)-خاصة-في اللغة مع سوء فهم لمحتواه أحيانا، واستمرت أوروبا كذلك حتى نهاية القرن 16م؛ تاريخ انبعاث أوروبا من الناحية العلمية لأسباب أهمها:

1. الحروب الصليبية : التي أدت إلى احتكاك الغرب بالعرب والاطلاع على حضارتهم، وكذا ثراء تراثهم اللغوي أو الفلسفي.

2. الصدامات الحربية بين إسبانيا وصقلية، وما تبعها من رحلات في طلب العلم من عواصم الأندلس والمغرب العربي.

3. ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية : مما أدى إلى تسرب المفاهيم العربية، وكذا اليونانية إلى أذهان الأوروبيين، فاكتشفوا الفلسفة اليونانية ومذاهبها في علم اللسان خاصة "أرسطو" وما زاد عليه العرب من مفاهيم أعجب بها الأوروبيون، وقد كان تعليم اللاتينية عبارة عن تقليد أعمى للرومان خاصة دوناتو.

أولا/ مبادئ روجير بيكون(1214-1294):

ورغم ما قيل ويقال عن هذه الفترة إلا أنها عرفت –خاصة-القرن 13م ظهور مبادئ لسانية هامة قريبة مما أثبتته البحوث الحديثة ومنها:

1. مبدأ وحدة النحو: يقول روجير بيكون (Roger Bacon):" إن الغراماطيقي يحسب جوهر واحد في جميع اللغات، وإن كانت تتنوع تنوعا عرضيا."
2. تخصيص شيء معين بلفظ ما مرتبط بتصور الواضع لذلك الشيء.
3. ضرورة التقدير في النحو لتفسير الأبنية: مثل التحولات المتعلقة بالحذف، والتقديم والتأخير وغيرها.
4. دعا روجير بيكون إلى تأسيس المعرفة العلمية على التجربة والحس.

ثانيا/ أوروبا من ق 16م إلى ق18م (ظهور المعاجم والدراسات الابستيمولوجية):

على الرغم من وجود هذه المبادئ في تلك الفترة إلا أنها سرعان ما تدخل حيز النسيان، وتبقى الأمور على حالها إلى غاية القرن 16 حيث ظهرت دراسات في لغات غير أوروبية أهمها:

• معجم في إيطاليا في سبع لغات لصاحبه Calepino وعنوانه"Dictionarium" عام1502.

• معجم "Mithridates" لأدلونغ (Adelung) عام (1555) طبع في زيوريخ.

واستمر البحث في اللغات الأجنبية في أوروبا في القرن 17م فظهرت معاجم تحتوي على مفردات من 400 لغة مثل المعجم الذي ألفه مزيجر وطبع في فرانكفورت عام 1603.

أما القرن 18م فظر فيه عالمان جليلان هما كوندياك(Condillac) (1714-1780)، وجيمس هاريس (1709-1780)، أمّا الأول فألف كتابا عنوانه" محاولة في أصل المعارف الإنسانية"

« Essais sur l’origine des connaissances humaines »عام 1754

جاء فيه:" *اللغات أدوات تستعمل لا للتعبير عما في النفس فقط بل لتحليل المعلومات الحسية التي تتأدى إلى مشاعرهم بواسطة الحواس*"، أمّا هاريس فله كتاب "هرماس" فيه رجوع إلى الفكر اليوناني ونظرياته، وكان تعريفه للغة قريبا من تعريف سوسير لها يقول:" *اللغة نظام Système من الأصوات المقطعة كأدلة، ورموز لأفكارنا، وبالأخص العامة، والكلية منها*."

وهكذا فإن عمل هذين اللسانيين قريب جدا مما سيطرح فيما بعد عند دي سوسير خاصة ما تعلق منها ب: تعريفه "اللغة على أنها نظام من الأدلة اللسانية" كذا استعماله للمنهج الوصفي.

ثالثا/ الفيلولوجيا التاريخية والفيلولوجيا المقارنة:

عرفت نهاية القرن 18م بداية القرن 19م ظهور الدراسات الفيلولوجيا التي قام بها الألمان للنصوص القديمة، وهم الذين وضعوا أسس الدراسة المقارنة التاريخية للغات، وبعجوا النحو المقارن، وفي هذا العصر تكلم البنويون عن العلاقة بين اللغة والجماعة الناطقة بها وفكرها، واكتشف العلماء صلات القرابة بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية، قال وليام جيمس في تقريره أمام الجمعية الملكية الآسيوية البنغالية في عام (1786):" *اللغة السنسكريتية مهما يكن قدمها، لغة ذات تركيب عجيب، وهي أكثر كملا من اليونانية، وأغزر إنتاجا من اللاتينية، وأكثر منهما تهذيبا بشكل رائع، وهي فوق ذلك على قرابة بكل منهما في جذور الأفعال وصور القواعد معا، قرابة أقوى من أن تكون نتاجا للمصادفة، وهي قرابة قوية في الواقع لدرجة أن أي عالم في الفيلولوجيا لا يمكنه أن يفحص اللغات الثلاث جميعا، دون أن يعتقد أنها نشأت من أصل معين مشترك ربما لم يعد موجودا."*

ويعد اكتشاف صلات القرابة بين السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، أهم ما ميّز نهاية القرن 18م بداية القرن 19م حيث ظهرت الدراسات المقارنة والتاريخية للغات مع فرانز بوب، وياكوب جريم، وراسموس راسك، وهي " *دراسات ينعكس فيها روح عصر الرومانسية مع عودة الوعي بتاريخ الشعوب وتاريخها اللغوي*."

وكان قد ظهر في هذه الفترة عالم جليل، عارف بأسرار العربية هو" سلفستر دي ساسي"، كان عارفا باللغات الشرقية، وكون العديد من العلماء الذين سيظهرون في مجال الدرس اللساني مثل: فون شليغل، الأخوين جريم، فرانس بوب، فون همبولت، وقد أفادوا من دي ساسي في معرفة اللسانيات العربية خاصة مجالي النحو وعلم الأصوات.

وقد ظهرت في هذا العصر تيارات هامة يمكن أن نذكرها كما يلي:

1. المقارنة من أجل معرفة القرابة بين اللغات الهندية الأوروبية (شليغل، بوب، راسك).
2. تشبيه اللغات بالكائنات الحية (فلهالم فون شلايشر).
3. التتبع التاريخي والاهتمام بتعليل التطور (أعمال جريم).

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نقول: إنّ الدراسات اللسانية السابقة لفردينان دي سوسير عرفت ثلاث مراحل مهمة يمكن إدراجها هاهنا من حيث كونها مناهج أيضا:

1. *مرحلة النحو المعياري: وهي عبارة عن دراسة قائمة على المنطق، مما يؤدي إلى النظر إلى اللغة في شكل افتراضات لا نهائية مثل: النحو اليوناني.*
2. *مرحلة الفيلولوجيا التاريخية: وتتمثل في أعمال المدرسة الإسكندرية، حيث تقوم فيها الدراسة على شرح النصوص القديمة، وتفسيرها معتمدة المنهج التاريخي الباحث في أصل اللغات، نشأتها، تطورها.*
3. *الدراسات الفيلولوجيا المقارنة: ظهرت باكتشاف الأوروبيين لعلاقات القرابة بين السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، وتهدف إلى المقارنة بين اللغات الهندوأوروبية للوصول إلى اللغة الأم، وقد استقرت مع فرانز بوب*.

وكان رأي سوسير في المرحلة الأولى برفضه استعمال المعيار في الحكم على الظاهرة اللسانية، وقد نقد الفيلولوجيا التاريخية لأنها:

* تعدّ اللغة مجرد وسيلة وليست غاية.
* تدرس المكتوب دون المنطوق (دروسها ضيقة النطاق).
* تعتمد المنهج التاريخي.

أما الفيلولوجيا المقارنة فهي –في رأيه-:

* لم تضع لمنهجها غرضا محددا، بحيث إنّها لم تكن تتساءل عن معنى التقارب الذي كانت تبحث عنه، ولم تهتم بأبعاد العلاقات التي كانت تكتشفها.
* حصرت في المقارنة ولم تكن تاريخية.
* تعتمد مبدأ خاطئا (تبحث في الظاهرة الصوتية معزولة عن نظامها النحوي الواردة فيه).

خاتمة:

وما يمكن قوله: إن معظم الأفكار التي تحدث عنها سوسير في كتابه كانت موجودة قبله، خاصة إذا عدنا إلى أعمال كل من وايتني اللساني الأمريكي، أو أعمال فون هومبولت، وكذا أعمال النحاة الجدد، لكن سوسير استطاع تنسيقها وتقنينها واخراجها كنظرية خلدت اسمه كمؤسس للدرس اللساني الحديث كما يذهب معظم العلماء، وإن كان بعضهم يرفض فكرة التأسيس مثل ميشال أريفيه. لكنه لا ينكر فضله على اللسانيات ومختلف العلوم المرتبطة بها.